على بالي

يا له من يوم ملعون! أبصقُ عليه وأعلِّقه من طرفيه على المسمارين الكبيرين اللذينِ أثبَّتُهما على الباب، رافعًا يديه. أخلع بجانبه قدميَّ المتورمتين وسَحْنَتِي العابسة التي لم تكن هكذا في الصباح، ولكنها عبستْ تدريجيًّا طوالَ ذلك اليوم الذي يبدو بعيدًا لدرجة أنه يبتسم في وجهي ويتحدَّثُ عنِّي كأنَّه يتحدَّثُ عن شخصٍ غيري من بلدٍ ليست بلدي. أرميهما تحت الجسد المعلَّق على الحائط، ثم أعتدل وأرفع رأسي وأدير المفتاح في الباب بهدوء.

تتحسس عيناي وجهي في المرآة. أشعر بأنني في حاجة إلى حمَّامٍ صديقٍ، فأخلع ملابسي في هدوء وتمعُّنٍ كأنني أمارس طقسًا يوميًّا بكلِّ تجلِّياتِه وبكلِّ حضورِه وبكلِّ ما يوحي به من غياب.

أتركُ لمساتِ الماء الحانيةَ والدافئةَ والساخنةَ تُزِيلُ ما تجهَّم على كياني من ترابٍ وشمسٍ، ومن عَرَقِ كلِّ الذين قابلتُهم في الشارع اليوم وفي الأتوبيس وفي المترو، وفي محطات الانتظار التي لا تنتهي، وكلٌّ يأخذ منكَ ثَمَنَ انتظارِكَ.

أمسحُ بالمنشفة ذاكرةَ ذلك اليوم الطويل الذي يتكرَّر أبدَ الآبدين كأنني كُرَةٌ لاهيةٌ يلهو بها الباسم الأكبر، أو أنني تمثالٌ يصحو كلَّ دقيقةٍ لكي يُسقطه ثم يعود إلى هَوْهِ المتوطِّن كفيروس الكبد الوبائي، وإلى منتجعاته التي لا تنتهي، ودورانه اللانهائي على المستشفيات الألمانية علَّها تطيل عُمره يومًا آخرَ فيسقطني فيه من جديدٍ آلافَ المرَّاتِ.

أتأمَّلُ وجهي الحليقَ وملابسي في مرآه الحَمَّامِ التي أمسحُها بمنديلٍ ورقيٍّ كي أُبعدَ عنها أثرَ غُبار التِّمثالِ الساقطِ ليلَ نهار، ثم أشطبُ بنفس المنديل الورقي أثرَ صورتي من المرآة، وأخرجُ تاركًا الشبشب عند باب الحمَّام بعد أن أمسح من عليه بصماتِ قدميَّ بمنديلٍ ورقيٍّ آخرَ وورقةٍ جريدةٍ بها صورةٌ باسمةٌ لذلك الذي يلهو بي.

أضعُ قطعةَ فحمٍ على عينِ البوتاجاز وقليلًا من الماء في البَرَّادِ على عَينٍ أخرى، ثم أُسَخِّنُ ما تبقَّى من فُولِ الصباح على العين الثالثة. أجد أن الرغيف لا يجد له مكانًا، فأزيحُ البرَّاد قليلًا من على العين الثانية، وأسخِّن الرغيف على مهلٍ حتى تنبعث فيه الحرارةُ ويعود للحياة، فيتلذّذ به فمي.

لا بدَّ أن أُضِيفَ لمسةً لافتةً على هذا الطبق اليوميِّ. شريحتان من المخلَّل تكفيان. تتأفف اللقمةُ عندما أضعُها على سُلَّمِ جَوفي، وكأنها مَلَّتْ منِّي أبدَ الآبدين، أو أنَّ الفولَ يريدُ أن يخونني من كثرة الاعتياد، فأسكبُ عليها

وعليه رشفةَ شايٍ، تقليدًا لأسلوبِ زوجةٍ كنتُ قد تزوَّجْتُها في رأسي ذاتَ مساءٍ وهي تفترش الأرض وتبدأ في الأكل، وعندما ترفض اللقمةُ أن تسلكَ سكَّة جوفِها كأنها غير راضية تزدردُ هي الشاي ليحلو الأكل أو ينبلع.

أملا زجاجة الشيشة من مائها المخصوص في ثلاجة تخطرُ على بالي، وأضبط مستوى الماء في الزجاجة، ثم أجلس على الكرسي في غرفتي الوحيدة، واضعًا قطعة الفحم أمامي كأنها مثيرٌ أو مُنَبِّهٌ لوجود الحرارة والدفء في هذا العالم. أضع طبقة من المُعَسَّلِ في الحَجَرِ، ثم أسنُّ أظافري وأنبش في جسد تلك القطعة اليتيمة لأفتِّتها قطعًا لا تكاد تُرى، وأنثرها هنا وهناك على سطح طبقة المعسَّل. أخشى أن يكتشفها مستثمرٌ أو رجلُ أعمالٍ فيجيء ليختطفَها، فأخفيها بطبقة مُعَسَّلٍ أخرى وأضع قطعًا صغيرة من الفحم فوق كل هذه المأدبة.

أتنفس نفسًا عميقًا وأُقَبِّلُ المَبْسَمَ قُبلةَ ترحيبٍ وألصقه بفمي وأستدرجه لمساحتي الحميمة إلى أن أتمكَّنَ منه. تبدأ خيوط رأسي في الانفكاك عندما يتسلل الدخان كسحابة صيف ممطرة إلى سماء كادت تحترق، فأنهض لأُمْطِرَ سخطي وغضبي. أمسك بالعصا وأصلب كلَّ مَنْ علَّقتُهم على بابي دون أن

أتهاون مع أحد منهم. ألسع كلًّا منهم بضربة أو ضربتينِ، ثم أعود لأسحب الدخان وأخرج لأفرِّغه على أجسادهم.

عندما تتورَّم أجسادهم وتتعب يدي، أصرخ في وجوههم مُطَمْئِنًا:

- سأعفو عنكم طوال الليل.

ثم أدخل إلى غرفتي. أتشمَّم ما تبقَّى من دخان وأفتح الشبَّاك لتُطَيِّرَ الريحُ آثارَ دخانٍ كان حميمًا. أفتح ديوانًا شعريًّا مفهومًا وأقرأ قصيدةً أو قصيدتينِ، وإذا أعجبني سطرٌ أكرِّرُه إلى أن أبدأ في التغنِّي به بالرغم من أنه يخلو من الموسيقى التي يفرضها الباسمون كصورته وكصورة رجاله الذين يبتسمون على الدوام وهم يتكلمون عن أرضي كأنهم يتحدثون عن أرض أخرى. أُعجب به لخلوه من هذه الموسيقى. تنضبط الكلمات في رأسي بلا وزن، فتعلو رأسي كثيرًا. ساعتَها أرتدي ملابس الخروج.

أنظر متجهِّمًا إلى الواقفين على بابي، ثم أنزل السلم مردِّدًا بيت الشعر الذي أعجبني، وأجدني أؤلف قصيدة تعلو في رأسي مع كل درجة سلم أهبطها في طريقي إلى الشارع. وعندما يراني الشارع، أرفع رأسي وأعدل ياقتي وأطلق النار على أوَّلِ شخصٍ باسمٍ منهم يخطر على بالي.

٢٩ مارس ٢٠١٠